الأخلاق في الإسلام

كتبها

علي بن سالم بن يعقوب باوزير

(الأخلاق في الإسلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى ... أما بعد :

فهذه كلمة كانت قد طلبتها مني (إذاعة المكلا) فكتبتها ؛ راجيا من الله تعالى أن يكتب لها القبول ، وأن ينفع بها النفع العميم ، إنه جواد كريم .

(نَصُّ الكَلِمَة)

أيها الإخوة المستمعون : إن الإسلام دين كامل ، وشريعته شريعة شاملة لجميع ما يحتاجه الناس في حياتهم ، فليس الدين مقصورا على العبادات فقط ، كما قد يظن ذلك بعض الناس ، بل جاء لتصحيح عقائد الناس ، وعباداتهم ، ومعاملاتهم ، وآدابهم وأخلاقهم ، بل وجميع ما يحتاجه الناس من أمور دينهم ودنياهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

ومما جاء الإسلام بتهذيبه وإصلاحه أخلاق الناس وآدابهم ، فقد حث على تحسينها وتجميلها ، ورغب في تقويمها وتكميلها ، ورتب على ذلك عظيم الأجر ، وجزيل الثواب ، حتى قال النبي ﷺ : (إن صاحب حسن الخُلق ليبلغ درجة الصائم القائم) [1] ، أي يكون في الأجر والفضل بمنزلة الصائم أبدا الذي لا يُفطر ، والمصلي دائما الذي لا يَفتر .

وقال ﷺ : (ما من شيء في ميزان العبد أثقلُ من حسن الخُلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء) .

وقال ﷺ : (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم) .

وقال ﷺ : (اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن) .

وقال ﷺ : (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة ـ أي أسفلها ـ لمن ترك المراء وإن كان محقا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) .

---

(١) تنبيه : الأحاديث المثبتة في هذه الرسالة منتقاة ، فكلها صحيحة حسبما قرره أئمة الحديث رحمهم الله ، وإنما لم أذكر تخريجها ومن صححها في بعض الأحيان من باب الاختصار .

وقال ﷺ: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقا) .

ولما سئل ﷺ أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : (حسن الخلق) .

ولما سئل عن أكثرَ ما يُدخل الناس الجنة ؟ قال : (تقوى الله وحسن الخلق) .

ولما سئل عن أثقلِ شيء في الميزان يوم القيامة ؟ قال : (حسن الخلق) .

ولما سئل عن البرِّ وهو كثرة الخير ؟ قال : (البر حسن الخلق) .

وروى الترمذي عن عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ في تفسير (حسن الخلق) أنه قال : هو طلاقة الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى .

وعليه فلا غرابة أن نجد القرآن العظيم يحث على الأخلاق الحسنة ، ويرغب في الخصال الكريمة ، والخلال الجميلة .

كالصدق في الحديث ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

وكالصبر بأنواعه الثلاثة : الصبر على فعل الطاعة ، والصبر على ترك المعصية والصبر على أقدار الله المؤلمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾، وقوله : ﴿ وبشر الصابرين ﴾، وقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ، ولما ذكر الله تعالى الذين أعد لهم مغفرة وأجرا عظيما ذكر منهم : ﴿ الصادقين والصادقات والصابرين والصابرات ﴾ .

وكالعفو، والأمر بالمعروف، والإعراض عن السفهاء، كما في قوله تعالى: ﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

وكالكرم والجود ، وكظم الغيظ ، والإحسان في المعاملة، كما في قوله جل وعلا: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

وكالقول الحسن ، والجدال بالتي هي أحسن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ ، وقوله : ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ . وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ .

وكالرحمة واللين ، والمَشورة والدعاء للغير ، كما في قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

وكالوفاء بالعهد ، وإنجاز الوعد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾ ، وقوله : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ ، وقوله : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ .

وكالتواضع ، كما في قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ .

ولقد ترجم النبي ﷺ ، هذه الأخلاقَ إلى واقع عملي في حياته ، حتى استعظمها ربه تعالى ، وشهد له بكمالها وتمامها، فقال جل وعلا: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ كيف لا، وهو القائل ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، وفي رواية : (صالح الأخلاق) .

وإليكم ـ أيها الإخوة المسلمون ـ نماذجَ من حسن خلقه ﷺ :

(١) أما صدقه ﷺ ، فقد كان يسميه المشركون بالصادق الأمين ، وما أمر بناء الكعبة ، واختلافهم في وضع الحجر ، ورضاهم بتحكيمه ﷺ عنكم ببعيد ، ولهذا قال له ربه سبحانه : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

(٢) وأما وفاؤه بالعهد ﷺ ، فعن حذيفة بنِ اليمان رضي الله عنهما قال : ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي ، فأخذنا كفار قريش ، قالوا : إنكم تريدون محمدا ، قلنا : ما نريده ، ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه ، لننصرفن إلى المدينة ، ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله ﷺ ، فأخبرناه الخبر ، فقال : انصرفا ، نفي لهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم) رواه مسلم .

(٣) وأما رحمته وشفقته ﷺ ، فذلك في قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي ، مما أعلم من شدة وَجد أمه من بكائه) أي حزنها ، متفق عليه .

(٤) وأما تواضعه ﷺ ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت : ما كان النبي ﷺ في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله تعني خدمة أهله . رواه البخاري في صحيحه . وفيه أيضا أنه ﷺ قال : (لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت ، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت) .

(٥) وأما صبره ﷺ على قضاء الله وقدره ، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال : حين مات ابنه إبراهيم : (إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) متفق عليه .

(٦) وأما حلمه وعفوه ﷺ ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كنت أمشي مع النبي ﷺ ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ ، قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء . متفق عليه . وفي رواية عند مسلم : ثم جذبه إليه جذبة رجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي . وفي رواية أخرى : فجاذبه حتى انشق البرد ، وحتى بقيت حاشيته في عنق رسول الله ﷺ .

(٧) وأما حياؤه ﷺ ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئا يكره عرفناه في وجهه) متفق عليه . وعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ : كيف أغتسل من المحيض ؟ قال : (خذي فِرْصة مسك ـ أي قطعة من قطن ونحوه فيها مسك ـ فتطهري بها) قالت : كيف أتطهر ؟ قال : (تطهري بها) قالت : كيف ؟ قال : (سبحان الله ، تطهري) فاجتذبتُها إليَّ ، فقلتُ : تتبعي بها أثر الدم . وفي رواية : ثم إن النبي ﷺ استحيى ، فأعرض بوجهه . متفق عليه .

(٨) وأما جوده ﷺ وكرمه ، فعن أنس رضي الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه ، فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمدا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة . رواه مسلم .

(٩) وأما وقاره وسكينته ﷺ ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا قط ضاحكا حتى ترى منه لهواته ، إنما كان يتبسم) متفق عليه .

(١٠) وأما عدله ﷺ ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما : أن امرأة من بني مخزوم سرقت ، فاهتمت قريش لذلك فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟

فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبِّ رسول الله ﷺ ، فكلمه أسامة فلما كلمه فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال : أتكلمني في حد من حدود الله قال أسامة : استغفر لي يا رسول الله ، ثم قام فاختطب ثم قال : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها) .

(١١) وأما شجاعته ﷺ ، فعن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، وقد فزع أهل المدينة ليلة سمعوا صوتا فتلقاهم النبي ﷺ على فرس لأبي طلحة عرْي ، وهو متقلد سيفه فقال : (لم تراعوا لم تراعوا) رواه البخاري ومسلم . والشجاعة : هي الإقدام في محل الإقدام ، أما الإقدام في محل الإحجام فهو تهور وسفه .

هذا وقد أمرنا ربنا جل وعلا بالاقتداء به ﷺ فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ، وقال : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

ولأهمية الأخلاق في الإسلام نجد أن النبي ﷺ يقرنها بالدين فيقول : (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) . وإنما نص عليها مع أنها من الدين لعظيم شأنها أولا ، ولأن بعض الناس من المتدينين لا أخلاق لهم ، فمعاملتهم سيئة ، ومعاشرتهم فظة ، لا تكاد تطاق .

فعبادة بلا أخلاق سبب للهلاك والشقاء ، ومعصية مع الأخلاق يرجى معها النجاة والسعادة ، وإليكم ما يدل على ذلك :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها . قال : (لا خير فيها ، هي في النار) . قال : يا رسول الله فإن فلانة تذكر قلة صيامها وصدقتها وصلاتها ، وإنها تصدق بالأثوار ـ أي بالقطع اليسيرة ـ من الأقط ـ وهو اللبن المجفف ـ ، ولا تؤذي جيرانها . قال : (هي في الجنة) روه أحمد والبيهقي في [شعب الإيمان] .

وعنه رضي الله عنه أيضا أن النبي ﷺ قال : (بينما كلب يطيف بِرَكِيَّةٍ ـ أي بئر ـ قد كاد يقتله العطش ، إذ رأته بغي ـ أي زانية ـ من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوقها ـ أي خفها ـ ، فاستقت له به فسقته إياه ، فغفر لها به) متفق عليه .

ونحن إذ نذكر ذلك لا تهوينا من شأن المعصية ، فإن الله وصف الزنا بأنه (كان فاحشة وساء سبيلا)، ولكن حثا على الأخلاق ، وترغيبا فيها ، وبيانا لعظم شأنها .

فالمؤمن الكامل هو الذي يكون كريم الأخلاق ، حسن المعاملة ، فيكون صادقا وصولا ، برا وقورا ، صبورا شكورا ، عفوا غفورا ، رحيما شفيقا ، حليما وفيا ، ورعا عفيفا ، عدلا شجاعا .

لا سبابا ولا طعانا ولا لعانا ، ولا فاحشا بذيئا ، ولا مغتابا ولا نماما ، ولا عجولا ولا حقودا ، ولا بخيلا ولا حسودا ، وإنما بشاشا هشاشا ، سليم الصدر ، حسن الظن بإخوانه المسلمين ، يلتمس لهم العذر ، ويحب لهم ما يحبه لنفسه ، ويبغض لهم ما يبغضه لنفسه، مفتاحا للخير، مغلاقا للشر، مباركا أينما كان، يحب في الله، ويبغض في الله ، بعيدا عن الهوى ، ونزغات الشياطين .

أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم ، أن يحسِّن أخلاقنا ، ويجمل آدابنا ، وأن يبصرنا بعيوبنا، ويعيننا على إصلاحها ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.